

بحث بعنوان

من ملامح البيئة في شعر هذيل

النحل وإشتيार العسل

بقلم

د. سلامة عبد الله السويدي

مدرسة الأدب العربي

كلية الإنسانيات والعلوم الإجتماعية

جامعة قطر

خاص لمجالس قبيلة هذيل

www.hothle.com/vb

غازي الهذلي (ابو سعد)

خالد الهذلي (ابو غلا)

من ملامح البيئة في شعر هذيل النحل واشتبار العسل

د. سلامة عبد الله السويدي
مدرسة الأدب العربي
بكلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية
جامعة قطر

من ملامح البيئة في شعر هذيل النحل واشتبار العسل

مازال شعر قبيلة «هذيل» بحاجة إلى مزيد من العناية والدرس ، وإنه لمن المؤسف حقاً ألا نجد اهتماماً من الباحثين بشعر هذه القبيلة على ثرائه ، وتفرده ، اللهم إلا دراسات قلائل لعل من أهمها دراسة « الدكتور أحمد كمال زكي » عن شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي ، ودراسة « نوره الشملان » عن أبي ذؤيب الهذلي .

أما دراسة الدكتور أحمد كمال زكي ففيها - شأن كل الدراسات الرائدة - شمولية النظرة التي تركز على الخطوط العامة ، ويفوتها كثير من الدقائق والتفريعات التي قد تكون أخرى بالعناية ، ويكون في إبرازها لفت إلى سمات فارقة يتفرد بها شعراء هذه القبيلة ، وأما دراسة نوره الشملان ، فشأنها شأن الدراسات التي تركز على شاعر واحد ، تعالج شعره على أنه شريحة منعزلة ، ويفوتها - في معظم الأحيان - السمات الجامعة بين هذا الشاعر وأضرابه من شعراء قبيلته .

ولعل أول ما يلفت القارئ في شعر هذيل أثر البيئة القوي ، ففي شعر هذه القبيلة تتجلى البيئة الهذلية بكل ملامحها من جبال وشعاب ، ومن خصوصية في الحياة وطرائق العيش ، ومن ألوان من النبات ، ومشاهد من الطبيعة لا توجد في بيئة أخرى من الجزيرة العربية .

ومعروف أن قبيلة « هذيل » كانت تسكن منطقة جبال السراة ، وتتوزع منازلها على مرتفعات هذه الجبال وعلى الأودية التي تتخللها بين مكة والطائف ويثرب ، ومعروف - أيضاً - أن هذه الجبال ذات طبيعة وعرة ، تنحدر انحداراً مفاجئاً إلى ساحل البحر الأحمر (١) .

وهذه الطبيعة الجبلية وإن كان لها أثر في نمط خشن من المعيشة لقبيلة هذيل فإنها - في الوقت ذاته - أتاحت لهم ما انفردوا به دون سائر القبائل من احتكار لعسل النحل وتجارته ، إذ اتخذت النحل من قمم الجبال بيوتاً لها ، فارتبط بذلك ذكر هذيل بذكر العسل ، وجرت الأمثال بذلك ، ومنه ما نجده في رسالة « الصاهل والشاحج » لأبي العلاء المعري من قول - قد يكون من سبكه - وهو « تكسب النحل ويشتار الهذلي » (٢) ، وكذلك كان الحصول على العسل من الأهداف الأولى للإغارة على هذه

القبيلة ، وربما تدلنا على ذلك ، القصة المروية في كتاب المحبر لابن حبيب عن غارة لتأبط شراً - وهو كما نعرف شاعر صعلوك - على جبل من جبالهم بغية الظفر بهذا الجني الطيب (٣) .

وإذا كان الفن - فيما نعتقد - نتاج البيئة المعبر عنها فطبيعي أن نتوقع ظهور صدى في شعر هذيل لهذه الظاهرة في حياتهم ، وهذا ما نحاول اجتلاءه في صفحات هذا البحث .

وباستعراض ديوان شعر الهذليين ، تبين لنا أن أربعة من شعراء هذيل ، على تفاوت بينهم في الكثرة والقلة والإجمال والتفصيل - قد سجلوا لنا في شعرهم رحلة اختيار العسل وهؤلاء الشعراء هم : أبو ذؤيب الهذلي ، وساعدة بن جؤية ، وأبو صخر الهذلي ، وربيع بن الجحر ، هذا فضلاً عن مجموعة من الصور مأخوذة من مادة النحل موزعة على عدد آخر من الشعراء .

وربما بدت النتيجة مخيبة للأمل ، وجاءت الشواهد قليلة بالقياس إلى حجم الظاهرة وأهميتها في حياة هذيل ، ولكن علينا أن نضع في اعتبارنا عدة عوامل منها أن ديار هذيل كانت تمتد عبر مساحة شاسعة من يثرب شمالاً إلى الطائف جنوباً ، وطبيعي أن هذا الاتساع جعل البيئة غير متماثلة وإذا كان الأمر كذلك فلنا أن نتوقع أن ظاهرة اختيار العسل انحصرت في إطار محدود من هذه البيئة ولذلك لم يلتفت إليها الشعراء الذين كانوا خارج هذا الإطار .

وثاني هذه العوامل أن فريقاً كبيراً من شعراء هذيل انشغل بموضوعات خاصة مستغرقاً فيها استغراقاً ربما حجب عنه بعض ملامح البيئة ، فريق - مثلاً - استغرق في النقائض والهجائيات ، وفريق انكفأ على أحزانه يبتثها في مراثيه . أما العامل الثالث فيتمثل في بُعد بعض شعراء هذيل عن بيئتهم ، وهجرتهم إلى بيئات جديدة ، أو انشغالهم بالسفر والرحلة ، وربما نجد مثلاً لهؤلاء في « مليح بن حكم » الذي تعددت أسفاره من عمان إلى شمال الجزيرة إلى مصر - كما يسجل شعره - وطبيعي أن ينشغل أمثال هؤلاء الشعراء ببيئاتهم الجديدة .

ورابعاً فإن بين شعراء هذيل شعراء مقلين قلة مفرطة لا يتسع ماوصل إلينا من أشعارهم لشيء ، ثم إننا أخيراً لا نعتقد أن ما وصل إلينا من شعر الهذليين هو كل شعرهم ، ونظن أن هناك قدراً مفقوداً لم يصل إلينا ، وربما كان في هذا المفقود شواهد أخرى على ما نحن بصدد من مظاهر اختيار العسل .

على أن قلة الشواهد لا ينبغي أن تصرفنا عن دراستها ، وبخاصة أنها تسجل

ظاهرة فريدة في الشعر الجاهلي والإسلامي يجب اللفت إليها باعتبارها ممحاً من ملامح الشعر الهذلي ينضاف إلى ما عرف عن هذا الشعر من ملامح أخرى تتصل باللغة ، والتصوير ، وبناء القصيدة .

ولن يكون هدفنا في هذه الدراسة محاولة استخلاص ملامح للبيئة فيما نعرضه من شواهد ، وإنما سيكون محاولة استجلاء هذه الملامح في صورتها الفنية بمعنى أن نتتبع الشاعر وهو يحيل الواقع فناً ، وهذا - فيما نعتقد - هو صميم ما ينبغي أن يشغل به نفسه دارس الأدب .

وقد اتخذ الحديث عن العسل واشتباره في شعر هذيل ما يشبه التقاليد الفنية المحددة إذ غالباً ما ينطلق الشاعر إليه من المرأة ، ويكون الحديث عن ريق المرأة ، هو نقطة البداية إذ يشبهه الشاعر بالعسل ثم يستطرد إلى رحلة الاشتيار بكل تفصيلاتها ودقائقها .

ومن أمثلة ذلك ما نراه عند ساعدة بن جؤية ، وقد صور فم صاحبتة ، وتفنن في بيان طيب رائحته وجمال أسنانه وعذوبة ريقه الذي شبهه بمزيج من الخمر والعود والكافور والمسك والعسل :

وَمَنْصَبٌ كَالْأَقْحَوَانِ مُنْطَقٌ بِالظَّلْمِ مَصْلُوتُ الْعَوَارِضِ أَشْنَبُ
كَسْلَافَةِ الْعِنَبِ الْعَصِيرِ مَزَاجُهُ عَوْدٌ وَكَافُورٌ وَمِسْكٌ أَصْهَبُ
خَصِرٌ كَأَنَّ رُضَابَهُ إِذْ ذُقْتُهُ بَعْدَ الْهُدُوِّ وَقَدْ تَعَالَى الْكُوكِبُ
أَرَى الْجَوَارِسَ فِي ذَوَابَةِ مُشْرِفٍ فِيهِ النُّسُورُ كَمَا تَحَبَّى الْمُوكِبُ^(٤)

ثم يمضي في وصف رحلة اشتيار العسل .
ويسلك أبو صخر الطريقة نفسها ، في وصف إحدى قاصرات الخطو الكواعب التي جمعت بين الوضاحة ، والنعومة ، والقوام المعتدل ، حيث شبه ريقها بعسل نقي مصفى :

من القاصرات الخطو في السَّيرِ كاعْبُ سَرَاةُ الدُّجَى يُرْوِي الظَّمآنِ نِسْمَامَهَا
صَرَاحِيَّةٌ لَوْ تَدْرُجُ الذَّرُّ أُنْدَبَتْ عَلَى جِلْدِهَا ، خَوْدٌ عَمِيمٌ قَوَامُهَا
كَأَنَّ عَلَى أَنْيَابِهَا مِنْ رُضَابِهَا سَبِيئاً نَفَى الصَّفْرَاءَ عَنْهَا إِيَامُهَا^(٥)

ويظل التشبيه بالعسل هو الأثير عند أبي صخر تتنوع مسالكة إليه ، ولكنها

تنتهي إلى رحلة الاشتيار ، يقول في قصيدة أخرى :

كَأَنَّ عَلَى أَنْيَابِهَا مِنْ رَضَابِهَا وَقَدْ دَنَّتِ الشَّعْرَى وَلَمْ يَصْدَعْ الْفَجْرُ
وَبَلَّ النَّدى مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ جِيَّهَا إِذَا اسْتَوْسَنْتَ وَاسْتَنْقَلَ الْهَدَفُ الْهَدْرُ
مُجَاجَةً نَحْلٍ مِنْ قَرَّاسٍ سَبِيئَةٍ بِشَاهِقَةٍ جَلَسَ يَزُلُّ بِهَا الْغُفْرُ^(٦)

وقد يسلك الشعراء منحى آخر من التشبيه مستخدمين الأسلوب الدائري الذي يبدأ بالحديث عن العسل وتفصيل دقائق رحلة اشتياريه ، ثم ينتهي بتفصيل الرقيق عليه وهو سنن معروف في وصف الشعراء ، إذ يكون هذا التشبيه الدائري على هيئة مقارنة تبدأ بالفضل عليه مسبقاً بما النافية ثم يأتي في النهاية المفضل في هيئة الخبر ، وهذا المنحى من التشبيه شائع الاستخدام بين شعراء هذيل ، وعند أبي ذؤيب بخاصة ، فيبدأ في إحدى قصائده بقوله :

وَمَا ضَرَبَ بَيِّضَاءُ يَأْوِي مَلِيكُهَا إِلَى طُنْفٍ أَعْيَا بَرَاقٍ وَنَازِلٍ

وبعد أن يقدم لوحة كاملة لرحلة العسل ينتهي إلى قوله :

بِأَطْيَبٍ مِنْ فِيهَا إِذَا جِئْتُ طَارِقًا وَأَشْهَى إِذَا نَامَتْ كِلَابُ الْأَسَافِلِ^(٧)

وفي قصيدة أخرى يتغزل بمحبوبته فيقدم صورة للخمر تتأزر أشتاتها وتتكامل حين تتصل بصورة العسل ، لتنتهي بذلك التفضيل المتعارف عليه :

وَأَقْسَمُ مَا إِنْ بَالَهُ لَطِمْيَةٌ يَفُوحُ بِبَابِ الْفَارِسِيِّينَ بِأَبْهَا^(٨)

ويدلف من الخمر إلى العسل :

أَتَوْهَا بِرَبِيعٍ حَاوَلْتُهُ فَأَصْبَحْتُ تَكْفُتُ قَدْ حَلَّتْ وَسَاغَ شَرَابُهَا
بَازِيٍ الَّتِي تَأْرِي لَدَى كُلِّ مَغْرِبٍ إِذَا أَصْفَرَّ لَيْطُ الشَّمْسِ حَانَ انْقِلَابُهَا

ويمضي في وصف طويل لرحلة العسل ، فإذا أوشك على الانتهاء ربط مرة أخرى بين الخمر والعسل ممهداً لنهاية دائرة التشبيه حيث يأتي المفضل :

بِأَطْيَبٍ مِنْ فِيهَا إِذَا جِئْتُ طَارِقًا مِنْ اللَّيْلِ وَالتَّفْتُ عَلَى ثِيَابِهَا^(٩)

ولا يبعد ساعدة بن جؤية كثيراً عن هذا الأسلوب الدائري حين يبدأ في إحدى قصائده بقوله :

وما ضَرَبَ بَيضاءَ يَسْقِي دُبُوبَهَا دُفَاقُ وَعَرُوانُ الكَرَاثَ فَضِيْمُهَا^(١٠)

حتى إذا فرغ من وصف رحلة العسل قال:

فذلِكَ ما شَبَّهْتُ فَا أُمَّ مَعْمَرٍ إذا ما تَوَالَى اللَّيْلُ غَارَتْ نُجُومُهَا

على أن الاستطراد في صورة المشبه ، وأسلوب التشبيه الدائري كانا من أهم الأساليب الفنية في وصف الناقة في الشعر القديم ، إذ غالباً ما كان يستخدم الشاعر أحد هذين الأسلوبين حين يريد أن يبرز قوة ناقته فيشبهها بالثور الوحشي أو بحمار الوحش أو بالبقرة الوحشية ثم يستطرد إلى ظهور الصياد وما يجري من صراع ينتهي بالإخفاق أو الفوز . والحقيقة أننا نرى تشابهاً كبيراً بين وصف مشاهد اشتياري العسل وبين مشاهد هذا الصراع مع فارق واحد هو أن المشتار الذي يقابل - في نظرنا - الصياد منتصر دائماً .

على أية حال نستطيع القول : إن المرأة كانت هي الباب الذي يلج منه الشعراء إلى العسل واشتياره ، ولم نر شذوذاً عن هذا إلا في قصيدة فريدة لأبي ذؤيب رواها أبو نصر والأخفش ، يصف فيها صعلوكاً - وأظنه يعني نفسه - ويبين أن كل ما يملكه الصعلوك من عدة ، حبل ومسأب لاشتيار العسل ، وسهام للصيد وإن كل مال هذا الصعلوك هو فضلات النحل ، وكسب السهام ، وذلك في قصيدته :

واشَعَثَ مَالَهُ فَضَلَاتُ ثَوَلٍ عَلَى أَزْكَانٍ مُهْلِكَةٍ زَهُوقٍ^(١١)

وبهذه القصيدة يكون الفخر سياقاً آخر لذكر العسل ، ووصف رحلة اشتياره .

ونمضي مع رحلة اشتياري العسل لنرى كيف جسد شعراء هذيل مخاطرها ، فصوروا لنا قمم الجبال ، التي تأوي إليها النحل ، ووصفوها بأنها شاهقة لا يستطيع التحليق إليها طائر ، وأن المرتقى إليها صخور ملساء لا تثبت عليها قدم . وتتنوع صور الشعراء حول ذلك لكنها - في النهاية - تقضي إلى إشعار القارئ بخطورة الرحلة ، وصعوبة المغنم .

ونبدأ بأبي ذؤيب إذ تحتل رحلة اشتياري العسل في شعره مساحة واسعة ، ويكاد وصفه لهذه الرحلة يحيط بكل خطوطها وينقل كل ملامحها ، وفي قصيدته البائية .

أبا الصُّرم من أسماءِ حَدَّثَكَ الَّذِي جَرَى بَيْنَنَا يَوْمَ اسْتَقَلَّتْ رِكَابُهَا

يَقْدُم لَنَا لَوْحَةً لِهَذِهِ الرَّحْلَةِ يَدْخُلُ إِلَيْهَا عَنْ طَرِيقِ الْأَسْلُوبِ الدَّنْرِيِّ - كَمَا أَسْلَفْنَا
وَيَسْبِقُهَا بِحَدِيثٍ عَنِ الْخَمْرِ الْعَزِيزَةِ الَّتِي قَطَعْتَ رَحْلَةً طَوِيلَةً خَطِرَةً مِنَ الشَّامِ إِلَى دِيَارِ
ثَقِيفٍ لَتَكُونَ مَزَاجاً لِهَذَا الْعَسَلِ ، وَيَكُونُ هَذَا الْمَزَاجُ - فِي النِّهَايَةِ - عَلَى طَبِيبِهِ وَلِذَلِكَ
- أَقْلَ طَبِيبًا مِنْ فَمِ الْمَحْبُوبَةِ حِينَ يَأْتِيهَا طَارِقًا بِاللَّيْلِ .

وَيَبْدَأُ أَبُو ذُوَيْبٍ حَدِيثَهُ عَنِ الْعَسَلِ بِصُورَةٍ لِلنَّحْلِ فِي دَأْبِهَا ، وَجَمْعِهَا الرَّحِيقِ مِنْ
أَمَاكِنَ بَعِيدَةٍ ، ثُمَّ يَصُورُ هَذِهِ الْقِمَّةَ الشَّاهِقَةَ الَّتِي تَأْوِي إِلَيْهَا ، وَهَذِهِ الصَّخْرَةَ الْمَلْسَاءَ
الَّتِي تَقَعُ فِي شَقِّ مِنَ الْجَبَلِ ، وَالَّتِي تَعْسَلُ فِيهَا النَّحْلُ .

بَأْزَى الَّتِي تَأْرِي لَدَى كُلِّ مَغْرَبٍ إِذَا اصْفَرَ لَيْطُ الشَّمْسِ حَانَ انْقِلَابُهَا
بَأْزَى الَّتِي تَأْرِي الْيَعَاسِيَّ أَصْبَحَتْ إِلَى شَاهِقِ دُونِ السَّمَاءِ دُؤَابُهَا
جَوَارِسُهَا تَأْرِي الشُّعُوفَ دَوَائِباً وَتَنْصَبُّ أَلْهَاباً مَصِيفاً كِرَابُهَا
إِذَا نَهَضَتْ فِيهِ تَصْعَدُ نَفْرُهَا كَقَتْرِ الْغَلَاءِ مُسْتَدْرَأً صِيَابُهَا
يَظَلُّ عَلَى الثَّمَرِ مِنْهَا جَوَارِسُ مَرَاضِعُ صُهْبِ الرِّيشِ زَغَبٌ رَقَابُهَا (١٢)

وَفِي اللَّوْحَةِ - كَمَا نَرَى - تَرْكِيزٌ مَلْحُوظٌ عَلَى حَرَكَةِ النَّحْلِ وَدَأْبِهَا ، فَهِيَ « تَأْرِي
لَدَى كُلِّ مَغْرَبٍ ، وَالْمَغْرَبُ هُنَا هُوَ مَا لَا نَرَاهُ مِنَ الْأَمَاكِنِ ، وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى بَعْدِ
الْأَمَاكِنِ الَّتِي تَجْمَعُ مِنْهَا الرَّحِيقُ ، وَهِيَ لَا تَعُودُ إِلَّا إِذَا جَنَحَتِ الشَّمْسُ لِلْمَغْرِبِ » إِذَا
اصْفَرَ لَيْطُ الشَّمْسِ حَانَ انْقِلَابُهَا « ثُمَّ يَعُودُ فَيَصِفُ الْجَوَارِسُ مَرَّةً أُخْرَى بِأَنَّهَا
دَوَائِبُ » وَيَعُودُ مَرَّةً أُخْرَى فَيُشَبِّهُ انْقِلَاقَهَا فِي سُرْعَتِهِ وَشِدَّتِهِ وَاسْتِقَامَتِهِ بِانْقِلَاقِ
السَّهَامِ « كَقَتْرِ الْغَلَاءِ مُسْتَدْرَأً صِيَابُهَا » .

وَهَذَا التَّرْكِيزُ عَلَى الدَّأْبِ وَالْحَرَكَةِ مَقْصُودٌ - فِيمَا نَظُنُّ - مِنْ أَبِي ذُوَيْبٍ ، إِنَّهُ لَوْنٌ
مِنْ أَلْوَانِ التَّرْغِيبِ وَالْإِغْرَاءِ ، فَلَا بُدَّ أَنْ وَرَاءَ هَذِهِ الْحَرَكَةِ مَا وَرَاءَهَا مِنْ نَتَاجٍ عَظِيمٍ
مِنَ الْعَسَلِ يَسْتَحِقُّ الْمَغَامَرَةَ ، وَرَبَّمَا كَانَتْ هُنَاكَ خُطُوطٌ أُخْرَى فِي اللَّوْحَةِ تَسْهَمُ فِي هَذَا
الْإِغْرَاءِ مِنْهَا وَصَفُ أَمَاكِنِ الْعَسَلِ بِأَنَّهَا « مَصِيفَا كِرَابِهَا » أَيْ بَارِدَةٌ وَهَذَا أَجُودُ
لِلْعَسَلِ ، وَمِنْهَا أَيْضاً التَّوَقُّفُ عِنْدَ « الْجَوَارِسِ » وَوَصْفُهَا بِأَنَّهَا « مَرَاضِعُ صُهْبِ
الرِّيشِ زَغَبٌ رَقَابِهَا » وَهُوَ وَصْفٌ يَدُلُّ عَلَى دَقَّةِ مَلَاخِظَةٍ ، يَبْرُزُ النَّحْلُ فِي هَيْئَةٍ جَمِيلَةٍ ،
وَفِي جَمَالِ الْمُنْتَجِ إِحْيَاءٌ بِجَمَالِ انْتِاجِهِ .

غَيْرَ أَنَّ اللَّوْحَةَ فِيهَا إِلَى جِوَارِ هَذَا التَّرْغِيبِ ، تَرْهِيْبٌ رُبَّمَا يَسِيرُ مَعَهُ جَنْباً إِلَى جَنْبِ

فنجد أبا ذؤيب يصور عزة منال هذا الغنم ، فهذه النحل أصبحت إلى شاهق ، ولا يكتفي بذكر الشاهق بل يردف « دون السماء ذؤابها » ثم يعود فيذكر أن الجوارس « تأري الشعوف » أي قمم الجبال ، وأنها « تنصب ألهاً » أي تنزل إلى شقوق في الجبل وتعمل فيها ، وفي هذا ما فيه من المخاطر ، وأنها لا تترك بيوتها دون حماية بل دائماً « يظل على الثمراء منها جوارس ، والثمراء هو الشاهق الذي ذكره أبو ذؤيب .

وهكذا من البداية ينقلنا أبو ذؤيب إلى جو من التوتر فيه رغبة وفيه خوف ، وكأنه يمهّد بذلك لظهور شخصية المشتار هذا الرجل الحاذق الذي ورث مهنة اشتيार العسل عن آبائه من بني خالد :

فلما رآها الخالدي كأنها حصى الخذف تهوي مُستَقْلاً إياها
أجدّ بها أمراً وأيقن أنه لها أو لأخرى كالطحين تُرابها
فقلّ تجنّبها حرام وراقه ذراها مُبيناً عَرْضُها وانتصابها
فأعلق أسباب المنية وارتضى ثقوفته إن لم يخنه انقضائها
تدلّ عليها بين سب وخيطة بجداء مثل الوكف يكبو غرابها
فلما اجتلاها بالإيام تحيرت ثبات عليها ذلّها واكتئابها (١٣)

يرى الخالدي النحل في حركتها الدائبة فيتخذ قراره ، ويوقن أنه ماض لهذه الرحلة حتى ولو كان فيها هلاكه ، وتحذره أصوات أن يتجنب هذه الرحلة فلا يصغى لها بعد ما راقه منظر شهد العسل في عرضه وانتصابه ، فيعلق حباله ، ويتدلّى ، ويعمل « الدخان » فتتفرق النحل عن عسلها عليها الذل والاكتئاب ..

ودقيق من أبي ذؤيب أن يؤثر البناء للمجهول في قوله « فقلّ تجنّبها حرام » إنها أصوات محذرة لا ندري مصدرها لعلها أصوات من داخل « حرام » نفسه ، ولعل أبا ذؤيب بهذا أراد أن يطلعنا عما يعتمل في نفس هذا الفتى الخالدي من صراع بين الإقدام والإحجام ، غير أنه من الواضح أن الصراع لم يطل فقد حسم الموقف لصالح المغامرة ذلك ما يوحي به قول أبي ذؤيب « أيقن أنه لها أو لأخرى » وما يوحي به قوله « ارتضى ثقوفته » .

وقد جعلنا أبو ذؤيب نحبس أنفاسنا ترقباً لنتيجة المغامرة فتوقف بالأحداث ليصف لنا هذا المنزلق الخطير ، الذي يتدلّى إليه هذا الخالدي المغامر ، إنها صخرة ملساء في ملاسة النطع يزل عنها الغراب ، ثم تأتي النهاية ، انتصار للفتى المغامر ،

وفوز بما أمل ، ولا ينسى أبو ذؤيب أن يصف النحل في ذلها واكتئابها حزناً على ما انتزع منها ، وفي هذا ما فيه من إشارة إلى نفاسة هذا العسل .

ولعل من نفل القول هنا أن نذكر أن رحلات اشتيَار العسل في هذيل لم تكن كلها على هذه الصورة التي تفنن أبو ذؤيب في عرض مخاطرها ، فبين الفن والواقع بون لا بد من تقديره وحسابه ولا بد أن نقدر هنا أن أبا ذؤيب إذا كان يصعد بمحبوبته إلى صورة مثالية من الجمال والفتنة فلا بد أن يكون العسل الذي يقرنه بريقها مثالياً أيضاً في نفاسته ، وفي صعوبة مناله .

على أي حال فإن أبا ذؤيب قد أوقفنا في صورته هذه على جوانب بيئية مهمة في رحلة اشتيَار العسل ، فعرفنا الأماكن التي تتخذها النحل بيوثاً لها في بيئة هذيل ، وعرفنا كيف كان يشتار العسل في وقبات الجبال ، ورأينا أدوات المشتار وعدته ، ووسائله في إبعاد النحل عن خلاياه .

* * *

وإذا كانت الخمر هي مزاج العسل في بائنة أبي ذؤيب - كما ألحنا - فإنه يشير إلى أن اللبن أيضاً كان مزاجاً للعسل في قصيدته اللامية :

أَسَاءَلْتُ رَسْمَ الدَّارِ أَمْ لَمْ تُسَائِلْ عَنِ السَّكَنِ أَوْ عَنْ عَهْدِهِ بِالْأَوَائِلِ (١٤)
وذلك في قوله :

وَإِنْ حَدِيثاً مِنْكَ لَوْ تَبَذَّلْتُهُ جَنَى النَّحْلِ فِي الْبَانِ عُوذِ مَطَافِلِ

وفي هذه القصيدة نرى أبا ذؤيب يركز على صورة المكان الذي اتخذته النحل معسلاً ، في صور ارتفاعه ، وصعوبة المرتقى إليه ثم صعوبة بلوغ الملقاة التي اتخذها النحل في شق من الجبل ليعسل فيها :

وَمَا ضَرَبَ بِيضَاءُ يَأْوِي مَلِيكُهَا إِلَى طُنْفٍ أَعْيَا بَرَاقٍ وَنَازِلِ
تُهَالُ الْعُقَابُ أَنْ تَمُرَّ بِرَيْدِهِ وَتَرْمِي دُرُوءَ دُونَهُ بِالْأَجَادِلِ
تَنْمَى بِهَا الْيَعْسُوبُ حَتَّى أَقْرَهَا إِلَى مَأْلَفِ رَحْبِ الْمِبَاءَةِ عَاسِلِ
فَلَوْ كَانَ حَبْلٌ مِنْ ثَمَانِينَ قَامَةً وَتَسْعِينَ بَاعاً نَالَهَا بِالْأَنَامِلِ

ففي هذه الأبيات تتواتر الصور دالة على ارتفاع المكان ، وشدة انحداره فهو

يعيي الراقي والنازل ، تخاف العقاب أن تقترب منه ، وتسقط الصخور مرتطمة بنتوبه ، لقد ظل اليسوب يرتقي بالنحل حتى أنزلها هذا المكان الرحب ، إنه هوة في قمة الجبل سحيقة ، لو تدلى إليها رجل بحبل طوله ثمانون قامة فإنه لم يستطع أن ينال العسل إلا بأنامله .

وإذا كان أبو ذؤيب قد أطل هنا في وصف المكان ، وتنوعت صورته فإنه لم يعرض لنا في هذه القصيدة الصراع الذي اعتمل في نفس المشتار ، وإنما اختصر مشهد الاشتيار في ثلاثة أبيات ، وكأنه رأى أن يترك للقارئ تخيل ما يعتري المشتار وقد أسلف إليه بوعورة المكان ، وصعوبة المرتقى والتدلي ، يقول :

تَدَلَّى عَلَيْهَا بِالْحَبَالِ مُوثَّقًا شَدِيدُ الْوَصَاةِ نَابِلٌ وَابْنُ نَابِلٍ
إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ ثُوبٍ عَوَامِلٍ
فَحَطَّ عَلَيْهَا وَالضُّلُوعُ كَأَنَّهَا مِنْ الْخَوْفِ أَمْثَالُ السَّهَامِ النَّوَاصِلِ

وهذه الأبيات وإن كانت توحى بالخطر الشديد (شديد الوصاة) وتصور الخوف الذي جعل ضلوع المشتار مثل السهام فإنها تبين في الوقت ذاته حذق هذا المشتار وتمرسه ، فقد ورث هذا الحذق عن أبيه ، وبلغ من تعوده على القيام بمثل هذه المهمة أنه لم يعد يخشى لسع النحل .

ونحن وإن كما افتقدنا في صورة المشتار هنا الحياة التي عرضتها القصيدة البائية فإننا لا نعدم في نهايتها خطاً جديداً يضاف إلى صورة اشتيار العسل ، ذلك هو مزج العسل بالماء :

فَشَرَّجَهَا مِنْ نُطْفَةٍ رَجَبِيَّةٍ سُلَاسِلَةٍ مِنْ مَاءٍ لَصِبٍ سُلَاسِلٍ
بِمَاءِ شُنَانٍ زَعَزَعَتْ مَتْنَهُ الصَّبَا وَجَادَتْ عَلَيْهِ دِيْمَةٌ بَعْدَ وَابِلٍ

وأما مزج العسل بالخمير فهذا ما لا نستطيع الحكم عليه ، وأما مزج اللبن فهذا سائغ مقبول ، أما أن يمزج بالماء مهما كانت عذوبة هذا الماء وبرودته فهذا ما لا تستسيغه أذواقنا المعاصرة ، ولعل هذا العسل الهذلي ، كان فريداً في بابهِ ، وكان على درجة عالية من التركيز بحيث لا يستطيع تناوله إلا ممزوجاً بالماء .. وعلى أي فقد كان ذلك ذوق الناس على هذا العهد .

على أن ما يلفتنا في لوحتي أبي ذؤيب السابقتين أنه أبدى تركيزاً خاصاً على مشاعر المشتار الداخلية ، وما يعتريه من رغب ورهب ، وما يبديه من حرص وحذر ،

وما يحتمل في صدره من خوف ولعل السر في ذلك أن المشتار في اللوحتين السابقتين كان خطأ من مجموعة خطوط تتألف جميعاً في إعطاء انطباع نهائي بقيمة العسل ونفاسته لذلك لم يتوقف أبو ذؤيب كثيراً عند الملامح الخارجية للمشتار على عكس ما نراه في قصيدته القافية التي يقول فيها :

وأشعثَ ماله فضلاتُ ثُولٍ على أركانٍ مُهلكةٍ زَهُوقِ (١٥)
 قَلِيلٍ لَحْمُهُ إِلَّا بَقَايَا طِفَاطِفٍ لَحْمٍ مَنحُوضٍ مَشِيقِ
 تَأْبَطُ خَافَةً فِيهَا مِسَابُ فَأُضْحَى يَقْتَرِي مَسَدًا بِشِيقِ
 على فتخاءٍ تعلمُ حيثُ تَنحُو وما في حيثُ تَنحُو من طريقِ
 فِيمَمٍ وَقَبَةٍ أَعْيَا جَنَاهَا على ذي النِّيقَةِ اللَّبِقِ الرَّفِيقِ
 فِيمَمٍ وَقَبَةٍ فِي رَأْسِ نَيْقِ دَوِينِ الشَّمْسِ ذَاتِ جَنَى أَنْيَقِ
 وكانت وَقَبَةً أَعْيَا جَنَاهَا على ذي النِّيقَةِ اللَّبِقِ الرَّفِيقِ
 فجاء بها سُلَافًا لَيْسَ فِيهَا قَذَى صَهْبَاءَ تَسْبِقُ كُلَّ رِيقِ

إن عملية الاشتيار هنا صورت تصويراً خاطفاً ، وكذلك أيضاً صور العسل وصفائوه لأن الهدف هنا تغير فليس المقصود الإشادة بالعسل ، وإنما المقصود الإشادة بالمشتار ، ومن هنا فالعسل هنا خط جزئي يعطي انطباعاً عن مهارة المشتار ودربته .

ولعلنا لاحظنا أن التصوير هنا كله خارجي فالمشتار أشعث مفرق الشعر ، وهو ضامر قليل اللحم ممشوق القد ، اللهم إلا بعض جلد مسترخ عند الخصرة « بقايا طفاطف لحم » ، وهو يتأبط جبّة من أدم ، وسقاء ، وجبلا يتدلى به ، ودأبته رجله الفتخاء المعوجة البصيرة بمسالك الجبل ، فهي تعرف الطريق حيث لا طريق ، إنها قريبة من صورة الصياد في الشعر القديم وإن لم تكن إيها ، وما لنا لا نقول ذلك وهذا المشتار صياد أيضاً له سهامه التي يتكسب بها :

فذاك تَلَادُهُ وَمُسَلْجَمَاتُ نَظَائِرُ كُلِّ خَوَّارٍ بَرُوقِ (١٦)

تلك صورة المشتار عند أبي ذؤيب فيها ثلاثة ملامح جسدية بارزة ، ملمح الشعر المشعث الذي يعكس المشقة والجهد ، وملمح قلة اللحم الذي يعكس الحياة الخشنة ، وملمح القدم الفتخاء ، الذي يعني طول الممارسة لتسلق الجبال ، ولعل هذه الملامح

الثلاثة قدمت لنا الشخصية كلها ، ولعلها أيضاً تدلنا على منحى أبي ذؤيب في رسم صورته إذ يشكلها من خطوط سريعة متجاورة ، ويترك لقارئه أن يملأ الفراغ بما توجبه إليه هذه الخطوط .

* * *

ولنا وقفة أخيرة مع أبي ذؤيب في قصيدته اللامية :

أَلَا زَعَمْتُ أَسْمَاءُ أَنْ لَا أَحِبُّهَا فَقُلْتُ بَلَى لَوْلَا يُنَازِعُنِي شُعْلِي (١٧)

ففي هذه القصيدة يقدم لنا مشهداً جديداً يتصل باشتييار العسل ألا وهو مشهد بيعه ، فهذا القادم بخمره من « أذرعات » يصل بها إلى « ذي المجاز » فيبيعها ثم يصبح طالباً للعسل يود شراءه :

فَبَاتَ بَجْمَعٍ ثُمَّ تَمَّ إِلَى مِنَى فَأَصْبَحَ رَادًّا يَبْتَغِي الْمَرْجَ بِالسَّحْلِ
فَجَاءَ بِمَرْجٍ لَمْ يَرَ النَّاسَ مِثْلَهُ هُوَ الضَّحْكُ إِلَّا أَنَّهُ عَمَلُ النَّحْلِ
يَمَانِيَّةٌ أَحْيَا لَهَا مَظًّا مَأْبِدٌ وَآلُ قَرَّاسٍ صَوْبُ أَرْمِيَةِ كُلِّ

ولا نذكر في الأبيات لعملية اشتييار العسل ومخاطرها وإنما التركيز على نوع العسل وجودته ، ومصادر تكوينه في بطون النحل فهو عسل لم ير الناس مثله ، واضح البياض كالثغر الأبيض « الضحك » بل هو الثغر الأبيض ذاته إلا أنه من صنع النحل ، إن النحل التي أنتجت جمع رحيقها من جبال باردة صوب اليمن ، حيث تغذت على ورق الرمان البري في « مأبد » ، و « آل قراس » هناك حيث المطر الدافق والسحاب الممطر .

وهذا المشهد - على قصره - يدل على بصر أبي ذؤيب وخبرته بالبيع والشراء ، فالمشتري يهتم دائماً بجودة الصنف وخامته - إذا صح لنا هذا التعبير - وكان هذا ما حرص عليه أبو ذؤيب فأغفل ما لايهتم به المشتري من كيفية اشتييار العسل ، وركز على جودة العسل في صورتين تؤكد كل منهما الأخرى ؟ لم ير الناس مثله (و هو الضحك) ثم أشار إلى ما يهم المشتري أيضاً من مصادر غذاء النحل التي صنعت العسل ، وعلى أي حال فقد أعطانا أبو ذؤيب في هذه اللوحات الأربع صورة لعملية اشتييار العسل « لم تكد تفلت جانباً من جوانبها » .

* * *

ونترك أبا ذؤيب إلى ساعدة بن جؤية ، وتطالعنا لوحته الأولى في وصف اشتيار
العسل في قصيدته البائية :

هَجَرَتْ غَضُوبٌ وَحُبٌّ مِنْ يَتَجَنَّبُ وَعَدَتْ عَوَادٍ دُونَ وَلَيْكَ تَشَعُّبُ (١٨)

إذ يبدأ فيشبهه ريق المحبوبة بأري الجوارس ، ثم يستطرد في صورة المشبه به :

أَرَى الْجَوَارِسَ فِي ذُوَابٍ مُشْرِفٍ فِيهِ النَّسُورُ كَمَا تَحَبَّى الْمُوكِبُ
مِنْ كُلِّ مُعْنِقَةٍ وَكُلِّ عِطَافَةٍ مِمَّا يُصَدِّقُهَا ثَوَابٌ يَزْعَبُ
مِنْهَا جَوَارِسُ السَّرَاةِ وَتَأْتِرِي كَرِيَاتِ أَمْسَلَةٍ إِذَا تَتَصَوَّبُ (١٩)

ويتفق ساعدة مع أبي ذؤيب في تصوير علو القمة التي تأري فيها النحل غير
أننا نلاحظ ميل ساعدة للاعتدال فهو لم يبالغ في تصوير علو المكان كما بالغ أبو
ذؤيب وإنما اكتفى بقوله : (ذؤابة مشرف) ثم جعل النسور محتبية فيه وهذا خلاف
مامر من جبل أبي ذؤيب الذي ترمي صخوره بالأجادل ، ويصنف ساعدة الجوارس ،
فمنها جوارس تأتري السراة حيث الماء العميم ، ومنها جوارس تأتري أمسلة الماء
في بطون الأودية .

ويزعم ساعدة أن النحل تجمع شمع العسل وتحمله على أجنحتها فيشبه هذا
الشمع بالمحلب (٢٠) .

وَكَأَنَّ مَا جَرَسَتْ عَلَى أَعْضَادِهَا حِينَ اسْتَقَلَّ بِهَا الشَّرَائِعُ مَحْلَبٌ

ثم يظهر المشتار وهو رجل صبور على المشي ، قصير ، خشن الأصابع معه عدته
من أعواد وسقاء :

حَتَّى أَشْبَّ لَهَا وَطَالَ إِيَابُهَا ذُو رُجْلَةٍ شَتْنِ الْبَرَاثِنِ جَحْنَبُ
مَعَهُ سِقَاءٌ لَا يُفَرِّطُ حَمَلُهُ صُفْنُ وَأَخْرَاصُ يُلْحَنُ وَمِسَابُ

ولعنا نلاحظ إثارة ساعدة لكلمة (البراثن) معبراً بها عن أصابع المشتار ، وهي
كلمة لاتستخدم للإنسان ، ولكنها هنا دقيقة في موضعها إذ تعبر عن خشونة الأصابع
التي هي سمة جسدية للمشتار من طول ما مارس التسلق للجبال ، والتدلي بالحبال .
ولعل وصف ساعدة للمشتار يذكر بوصف الصياد في الشعر الجاهلي حتى تعبيره
« حتى أشب لها » نفع عليه كثيراً عند ظهور الصياد في سائر الشعر الجاهلي ، وكما

كان الصياد ينتهز غفلة من صيده فيرشقه بسهامه ، أو يطلق عليه كلابه ، فكذاك هذا المشتار ينتهز غفلة من النحل ، ويقتحم خلاياها في غفلة منها ، وهذا ما يوحي به التعبير « وطل إياها » أبطأ رجوعها » ، وكان الإبطاء فرصة المشتار السانحة .
على أننا نقع على تصوير بالغ الدقة والروعة لعملية تدلى المشتار بحباله ، في قول ساعدة :

صَبَّ اللَّهَيْفُ لَهَا السُّبُوبَ بِطَغْيَةٍ تُنْبِي الْعُقَابَ كَمَا يُلْطُ الْمُجَنَّبُ
وَكَأَنَّهُ حِينَ اسْتَقْلَّ بَرِيدَهَا مِنْ دُونِ وَقَبَّتِهَا لِقَاءً يَتَذَبَذَبُ
فَقَضَى مَشَارَتَهُ وَحَطَّ كَأَنَّهُ خَلَقَ وَلَمْ يَنْشَبْ بِهَا يَتَسَبَّبُ (٢١)

لقد ثبت هذا المشتار المتلهف حبله في صخرة ملساء مستوية كالدرع لا يقترب منها العقاب ، ثم تدلى ، وكأنه متدلّيا يتذبذب في حبل ثوب خلق ، ثم حط في الوقبة خفيفا أيضا كالثوب ، ولم يلبث أن بدأ التسلل إلى النحل ، إنها صورة إلى جانب ما توحى به من الخطورة فإنها أيضا توحى بالخفة والمهارة ، وهي - ولا شك - لقطة بارعة لساعدة ، وهي تعوضنا شيئا ما عما افتقدناه في لوحة ساعدة من تصوير داخلي يبرز مشاعر المشتار على نحو ما رأيناه في تصوير أبي ذؤيب المفعم بالحوية ، لقد اكتفى ساعدة بالوصف الخارجي لعملية الاشتيار ، وهو وصف وإن يكن مفيداً في تقديم معلومات بيئية عن أماكن أري النحل ، وعملية الاشتيار ، وهيئة المشتار فإنه يظل قاصراً عن إعطائنا المتعة الفنية التي أحسسنا بها في قراءتنا أبي ذؤيب .

ونترك بائية ساعدة إلى ميميته :

وَمَا ضَرَبَ بِيضَاءُ يَسْقَى دَبُوبَهَا دُفَاقُ وَعَرَوَانُ الْكَرَاثِ فَضِيمَهَا (٢٢)

وهي قصيدة قصيرة من تسعة أبيات مبنية على أسلوب الاستدارة تبدأ بوصف العسل لتقرنه في النهاية بقم أم عمرو إذا ما توالى الليل غارت نجومها .
ولا تكاد تختلف الصورة في هذه القصيدة عن سابقتها في الهيكل العام ، فتبدأ بتحديد المكان الذي يأوي إليه النحل وخصوبته ، واللوان الشجر به كما رأينا في البيت السابق ، ثم يظهر المشتار على نحو ما ظهر في القصيدة السابقة .

أَتَيْحَ لَهَا شَتْنُ الْبَنَانِ مَكْرَمٌ أَخُو حُرَيْنٍ قَدْ وَقَّرَتْهُ كُلُّوْمُهَا
 قَلِيلٌ تَلَادَ الْمَالِ إِلَّا مَسَائِباً وَأَخْرَاصُهُ يَغْدُو بِهَا وَيُقِيمُهَا
 رَأَى عَارِضاً يَهْوِي إِلَى مُشْمَخِرَةٍ قَدْ أَحْجَمَ عَنْهَا كُلُّ شَيْءٍ يَرُومُهَا
 فَمَا بَرَحَ الْأَسْبَابُ حَتَّى وَضَعْنَهُ لَدَى الثَّوْلِ يَنْفِي جَثَّهَا وَيُؤْوِمُهَا
 فَلَمَّا دَنَا الْإِبْرَادُ حَطَّ بِشُورِهِ إِلَى فَضْلَاتٍ مُسْتَحِيرٍ جُمُومُهَا
 إِلَى فَضْلَاتٍ مِنْ حَبِيٍّ مُجَلِّجٍ أَضْرَّتْ بِهِ أَضْوَاجُهَا وَهَضُومُهَا
 فَشَرَّجَهَا حَتَّى اسْتَمَرَ بِنُطْفَةٍ وَكَانَ شِفَاءً شَوِيْئُهَا وَصَمِيمُهَا (٢٣)

والصورة أيضاً تعتمد على الوصف الخارجي ، والشاعر فيها يعتمد على خطوط
 خاطفة سريعة ، ويتوقف قليلاً عند المشتار ويركز على بنائه الخشن ، وأظفاره المتآكلة
 (مكرم) ثم يصف تمرسه بتسلق الجبال ، وآثار الجراح التي توقر جسده ، ويشير
 إلى أنه فقير إلا من أدواته التي يحرص عليها ، ويعكف عليها إصلاحاً وتقويماً ، فإذا
 بلغ عملية الاشتيار أوجزها في بيت واحد .

فما برح الأسباب حتى وضعنه لَدَى الثَّوْلِ يَنْفِي جَثَّهَا وَيُؤْوِمُهَا

وهكذا حررنا حتى من تصوير عملية التدلي التي ظفرنا بها في البائية .

ويتناول الشاعر على شيء من التفصيل عملية تشريح العسل بالماء ، ويؤكد بصفة
 خاصة على برودة هذا الماء ، إذ لا يقدم عليه المشتار إلا وقت الإبراد ، كما يؤكد على
 صفاء الماء وتجده فهو من غدير يغذيه سحب مجلجل دان يكاد يلامس الأرض .
 ولعل لمساعدة مبرراته في تفصيل عملية التشريح فهي التي ستعطي العسل مذاقه
 النهائي الذي سيكون شبيهاً بقم أم عمرو ، ولعل هذا المقصد النهائي كان وراء ما
 رأيناه من ضغط بعض عناصر الصورة - كما سلف أن المحنا إلى ذلك .

ومهما كان من أمر فإن أبا ذؤيب وساعدة يبقيان شاعري رحلة اشتيار
 العسل ، ولن نظفر بما في شعريهما من تتبع للرحلة وتفصيل لخطوطها على هذا
 النحو عند شاعر آخر من شعراء هذيل .

* * *

وتطالعنا رحلة العسل على نحو من - الإيماء والإشارة - عند شاعر ثالث من شعراء هذيل - وهو أبو صخر - وقد وردت في شعره إشارتان الأولى في قصيدته الرائية :

عَفَا سَرِفٌ مِنْ جُمْلٍ فَأَلْمَرْتَمَى قَفْرٌ فَشٌ ، فَأَدْبَارُ الثَّنِيَاتِ فَالْغَمْرُ (٢٤)
التي يرثي بها عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، والثانية في قصيدته الميمية :

عَفَتْ ذَاتُ عَرَقٍ عُصْلُهَا فَرِيئَامُهَا فَضَحْيَاوُهَا وَحَشٌ قَدْ أَجَلَى سَوَامُهَا (٢٥)
وفي قصيدته الأولى يصف ريق صاحبه « جمل » ويشبهه بمجاجة العسل ويستطرد في صورة المشبه به يقول :

كَأَنَّ عَلَى أَنْيَابِهَا مِنْ رُضَابِهَا وَقَدْ دَنَتِ الشَّعْرَى وَلَمْ يَصْدَعْ الْفَجْرُ
وَيْلُ النَّدَى مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ جَبِيهَا إِذَا اسْتَوْسَنْتِ وَاسْتَقْلَ الْهَدَفُ الْهَدْرُ
مُجَاجَةً نَحْلٍ مِنْ قَرَّاسٍ سَبِيئَةٍ بِشَاهِقَةٍ جَلَسَ يَزُلُّ بِهَا الْغَفْرُ
بِإِسْفَنْطِ كَرَمٍ نَاطِفٍ زَرْجُونَةٍ بِعَقَبِ سَرَى جَادَتْ بِهِ مَزْنٌ قُمْرُ
جُمَعْنَ مَعًا فِي صَحْفَةٍ بَارْقِيَةٍ فَصَفَى ذُوْبَاءُ شَبَّ نَشْوَتُهُ الْخَمْرُ (٢٦)

ونحن نرى في الصورة اختزالاً إلى حد بعيد ، وإذا كنا وقفنا من تتبعنا لرحلة اشتيार العسل عند أبي ذؤيب وساعدة على أن الرحلة تتألف من خطوط متتابعة تبدأ بوصف المكان ثم ظهور المشتار ورغبته ، ثم عملية التدلي والاشتيار ثم عملية التشريح فإن أبا صخر هنا اكتفى بالخطين الأول والآخر وكأنهما إيماء للقارئ بالرحلة كلها ، ففي البداية يشير إلى عسل نحل من قراس ، ويلمح إلى علو المكان إلماحاً سريعاً فهو « شاهقة جلس يزل بها الغفر » ثم يقفز مباشرة إلى مزج العسل وتشريحه بالماء ، ثم مزجه بالخمير « بإسفنط كرم ناطف زرجونة » .

وفي القصيدة الميمية لا يكاد يجاوز هذا سوى أنه يستبدل بوصف المكان خطأ من خطوط عملية الاشتيार هو طرد النحل بالدخان ، ثم يقفز أيضاً إلى عملية التشريح ، ثم مزج الخمير بالعسل :

كَأَنَّ عَلَى أَنْيَابِهَا مِنْ رُضَابِهَا سَبِيئاً نَفَى الصَّفْرَاءَ عَنْهَا إِيَامُهَا
بِمَادِيَّةٍ جَادَتْ لَهَا زَرْجُونَةٌ مَعْتَقَةٌ صَهْبَاءُ صَافٍ مُدَامُهَا
أَتَى مُنْذُ مَاتَتْ فِي رَوَاقِيدِ دَنَاهَا ثَلَاثُونَ حَوْلًا لَا يُخْشِ خَتَامُهَا
بِعَقِبِ سَرَى فِي مَزْنَةِ رَجَبِيَّةٍ بِقَاعٍ حَنِيٍّ يَوْمَ أَجَلِي غَمَامُهَا

وهكذا تتقلص رحلة العسل عند أبي صخر فتختزل في أبيات محدودة ، على أننا ينبغي أن نقدر أن القصيدتين اللتين ورد فيهما ذكر العسل عند أبي صخر ليستا خالصتين للغزل وإنما الغزل فيهما مقدمة ، وهذا خلاف ما رأينا عند أبي ذؤيب وساعدة حيث وردت رحلة العسل في قصائد خالصة للغزل . وهناك فرق - ولا شك - بين المقدمة الغزلية وبين القصيدة الغزلية ، في المقدمة استيفاء لرسم ، والشاعر مضطر فيها أن يختزل ويختصر ، وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للغزل فطبيعي أن يكون أشد فبما تفرع عليه وتولد منه كرحلة العسل ، ولعل في هذا تفسيراً لما أريناه عند أبي صخر .

وقياساً على هذا يمكن أن نفسر السر وراء هذه الصورة المقتضبة عند ربيعة بن الجحدر أيضاً ، والتي يقول فيها :

إِذَا ذُقْتَ فَاهَا قُلْتَ شَوِيَّةً شَائِبٌ مَعْتَقَةٌ مِمَّا تَشُوبُ الْجَوَارِسُ
بَصُوبٍ حَبِيٍّ تَحْتَ أَفْنَانٍ سِدْرَةٍ بِأَبْطَحَ تَسْقِيهِ شِعَابُ جَوَالِسٍ (٢٧)

فقد اكتفى ربيعة بإيماء سريعة إلى العسل وعملية التشريح ، ونذكر سر ذلك حين نعلم أن البيتين وردا في قصيدة رثاء يرثى بها أثيلة بن المتنخل الطابخي .

تبقى هناك نقطة نود الإشارة إليها في رحلة العسل هو ذلك المعجم اللفظي المشترك بينها وبين الخمر فتتردد كلمات مشتركة في كليتهما مثل « سبيئة » و « شرح » و « سلاف » و « صهباء » و « ليس فيها قذى » على نحو ما رأينا في قول أبي ذؤيب .

فجاء بها (سُلَافاً) (ليس فيها قذى) (صهباء) تسبقُ كلَّ ريق (٢٨)
وقول أبي صخر :

مُجَاجَةٌ نَحْلٍ مِنْ قَرَّاسٍ (سَبِيئَةٌ) بِشَاهِقَةٍ جَلَسَ يَزُلُّ بِهَا الْغُفْرُ (٢٩)

على أن التشابه بين وصف الخمر ووصف اشتيَار العسل يصل - في حسنا - إلى أبعد من هذا فعملية تشريح العسل ، والتأني في وصفها ووصف الماء تشرح به كل أولئك شبيه بما نقرؤه في الشعر القديم من عملية تشريح الخمر .
كذلك فإن الشاعر كان حريصاً على تحديد منابت غذاء النحل فيشير إلى أنها يمانية ، وأنها من مظ مأبد ، وأنها من قراس ، كما في بيت أبي ذؤيب :

يمانية أحيا لها مَظْ مأبدٍ وآل قرَّاسٍ صوبُ أرميةٍ كُحلٍ (٣٠)

وكما في بيت أبي صخر الذي مر آنفاً ، وهذا هو ما نراه في وصف الخمر من حرص على تحديد جهة عصرها سواء أكان في (بصرى) أو (أذرعات) أو غيرهما من البلاد التي عرفت بها .

ولعل هذه الوشائج الجامعة بين رحلة الخمر ورحلة العسل في الفن تعكس وشائج بينهما في واقع البيئة الهذلية من نظام مقايضة الخمر بالعسل أو تبادلها . وهكذا رأينا أن رحلة العسل فيما وصل إلينا من شواهد تضرب بأسبابها في صور أخرى من الفن الشعري ، أشرنا في بداية الحديث إلى ما يربطها بمشاهد الصيد من أسباب ، وها نحن أولاء نرى أسبابها التي تصلها برحلة الخمر .

يبقى بعد ذلك جانب آخر نتوقف فيه عند بعض الصور الشعرية عند شعراء هذيل التي اتخذت من النحل وعسله مادة لها ، وهذا الجانب لا بد من الإشارة إليه لأن البيئة عند بعض الشعراء لا تغدو مسرحاً للوصف بقدر ماتغدو للصورة ، ثم إن الألفة بين الإنسان وبيئته قد تجعل النادر الفريد مجرد مشهد عادي لا يذكره إلا إذا استدعاء موقف بعينه ، فإذا ذكره اكتفى بالإشارة الخاطفة العابرة معتمداً على أنه يخاطب أبناء بيئته الذين يعرفون عن هذا المشهد ما يعرفه ، وعلى أي حال لم يكن العسل مقترنا بريق المحبوبة وحده بل اقترن بالوعد ، فأمية بن عائد يشبه وعد المحبوبة له بالعسل الممزوج بالخمر في قوله :

أيام أسألها النّوال ووعدُها كالرّاحِ مخلوطاً بطعمِ لَوَاصِي (٣١)

ويظل النحل في حركته الدائبة وفيما يصدر عنه من طنين مادة لعدة صور هذلية ، فيشبه أمية أيضاً صوت السهام المنطق بصوت النحل في قوله :

تَراخ يَدَاهُ لمَحْشُورَةٍ خَوَاطِي القِدَاحِ عَجَافِ النّصالِ
كخَشْرَمِ دَبْرٍ لَهُ أَرْمَلٌ أو الجَمْرِ حُشٍّ بَصْلٍ جُزَالٍ (٣٢)

وَعَرَّاضَةٍ السَّيِّئَيْنِ تُوْبَعُ بَرِيْهَا تَأْوِي طَوَائِفُهَا لِعَجَسٍ عَبْهَرِ
يَأْوِي إِلَى عَظَمِ الْغَرِيفِ وَنَبْلُهُ كَسَوَامِ دَبْرِ الْخَشْرَمِ الْمُتَتَوِّرِ (٣٣)

فبعد أن يصف القوس بأنها عريضة مدمجة مستديرة ممثلة عند المقبض ،
يصف نبالها المنطلقة بسوام النحل التي تنطلق لأماكن الرحيق .
وقريب من ذلك ما نقع عليه في شعر أبي صخر من تشبيه اختلاف النبل بين
المحاربين بحركة النحل :

تَخَالُ اخْتِلَافَ النَّبْلِ بَيْنَ صُفُوفِهِمْ إِذَا أَدْبَرَتْ أَوْ أَقْبَلَتْ بَيْنَهُمْ نَحْلًا (٣٤)

وفي صورة لامرأة من بني القين بن جسر ترثي ولدها نراها تشبه ما كان معه
من رجال بثول النحل :

وَابْنَاهُ وَابْنُ اللَّيْلِ
لَيْسَ بِزُمَيْلٍ
شَرُوبٍ لِلْقَيْلِ
رَقُودٍ بِاللَّيْلِ
وَوَادٍ ذِي هَوْلِ
أَجَزَتْ بِاللَّيْلِ
تَضْرِبُ بِالذُّيْلِ
بِرَجُلٍ كَالثُّوْلِ (٣٥)

وخارج نطاق الحرب والرمي تظل النحل إشارة إلى وعورة المكان كما نرى في
صورة لجنوب ذي الكلب من قصيدة ترثي بها أخاها :

وَالْقَوْمُ مِنْ دُونِهِمْ أَيْنَ وَمَسْغِيَّةٌ وَذَاتُ رَيْدٍ بِهَا رِضْعٌ وَأَسْلُوبٌ (٣٦)

والرضع أولاد النحل ، وكأنها بذكر النحل تشير إلى وعورة هذا المكان الجبلي
وارتفاعه .

تلك محاولة لاجتلاء ظاهرة النحل واشتتار العسل في شعر هذيل ، حاولنا فيها
- على جهد ومشقة - أن نقدم للقاريء صورة مكتملة الخطوط أو شبه مكتملة ،
ونرجو أن نكون قد قدمنا فائدة ذات بال لقاريء الشعر الهذلي .

والرضع أولاد النحل ، وكأنها بذكر النحل تشير إلى وعورة هذا المكان الجبلي وارتفاعه .

تلك محاولة لاجتلاء ظاهرة النحل واشتتار العسل في شعر هذيل ، حاولنا فيها - على جهد ومشقة - أن نقدم للقاريء صورة مكتملة الخطوط أو شبه مكتملة ، ونرجو أن نكون قد قدمنا فائدة ذات بال لقاريء الشعر الهذلي .

هوامش

- (١) انظر في ذلك صفة جزيرة العرب للهمداني ، ص ٢٦٧ ، ومعجم ما استعجم للبكري ٨٧/١ .
- (٢) رسالة الصاهل والشاحج لأبي العلاء المعري ، ص ١٥٣ .
- (٣) كتاب المحبر لابن حبيب ص ١٩٧ - ١٩٨ .
- (٤) شرح أشعار الهذليين للسكري ١١٠٧/٣ - ١١٠٨ .
- الأري : العمل والتعسيل ، الجرّس : الأكل ، الجوارس التي تأكل الشجر .
- (٥) المصدر نفسه ٩٥٤/٢ ، الإيام : الدخان .
- (٦) المصدر نفسه ٩٥١/٢ .
- الهدف : الثقل وكذلك الهدر ، الغفر : ولد الأروية .
- (٧) شرح أشعار الهذليين ١٤٢/١ - ١٤٥ .
- الضرب : العسل إذا كان بين الصلابة واليبس .
- (٨) البالأة : بالفارسية إنما هي ببلة وهو الوعاء ، وعاء الطيب . اللطيمة : منسوبة إلى اللطيمة ، وهي غير تحمل المتاع والعطر فإن لم يكن في المتاع عطر فليست بلطيمة .
- (٩) شرح أشعار الهذليين ٤٤/١ - ٥٤ .
- (١٠) شرح أشعار الهذليين ١١٢٨/٣ - ١١٤١ . دبوب : بلد ، عروان : وادٍ ، الكراث : شجر ، ضميم : وادٍ .
- (١١) شرح أشعار الهذليين ١٨٠/١ .
- الثول : جماعة النحل ، المهلكة : الهضبة ، الزهوق : الملساء التي لا يسترها شيء .
- (١٢) شرح أشعار الهذليين ٤٨/١ - ٥١ .
- ليط الشمس : لونها ، والليط : القشر في كل شيء . اليعسوب : أمير النحل . الكربة : فصل ما بين الجبلين ، ومصيفاً : أصابها مطر الصيف . القتر : نصال سهام الأهداف ، الغلاء : سهام يتغالون بها ، صياها ، قواصدها .
- (١٣) شرح أشعار الهذليين ٥١/١ - ٥٣ .
- السَّبُّ : الحبل في لغتهم ، والخطية : الوتد ، الوكف : النطع ، الثبات : جمع « ثبة » وهو القطعة من القوم ومن كل شيء .
- (١٤) شرح أشعار الهذليين ١٤٠/١ - ١٤٥ .
- (١٥) شرح أشعار الهذليين ١٨٠/١ - ١٨١ .
- (١٦) شرح أشعار الهذليين ١٠٩٧/٣ - ١١١٣ ، مسلجمات : سهام طوال ، خوار : يخور في صوته إذا نُقِرَ ، بروق : يبرق من صفائه .
- (١٧) شرح أشعار الهذليين ٨٨/١ - ٩٧ ، المزج : يعني العسل ، السُّحْل : أي ينقُد الدراهم ، والسحل : النقد .
- (١٨) المصدر نفسه ١٠٩٧/٣ - ١١١٣ ، الولي : المدناة . وليك : قزبك .
- (١٩) ثواب : موضع ما يثوب الماء أي يجتمع فيه في الوادي . الكريات : مواضع فيها غلظ .
- (٢٠) وقد ورد مثل هذا القول في كتاب الحيوان للجاحظ ٤١٨/٥ (... ومنها ما ينقل الشمع الذي تبني به) ويبدو أنه على هذا ذهب القدماء ، ولكن أثبت العلم الحديث أن النحل هو الذي يكون الشمع .
- (٢١) اللقا : الثوب الخلق ، يتسبب : ينسَل .
- (٢٢) شرح أشعار الهذليين ١١٢٨/٣ - ١١٤١ .
- (٢٣) المسَّاب : السقاء ، الأخراس : عيدان يُصَلِّح بها ما أخذ من العسل ، الجث : الغثاء ، يؤوم : يدخن ، الهضوم : أماكن مطمئنة ، الأضواج : نواحي الوادي حيث ينثني .

- (٢٤) شرح أشعار الهذليين ٩٥٠/٢ - ٩٥١ .
- (٢٥) المصدر نفسه ٩٥٣/٢ - ٩٥٤ .
- (٢٦) المصدر نفسه ٩٥٠/٢ - ٩٥١ .
- ٣الفقر : ولد الأروية ، قراس : جبل ، جلس : طويلة ، زرجون ، كرمٌ وهو فارسي .
- (٢٧) شرح أشعار الهذليين ٦٤١/٢ - ٦٤٢ .
- (٢٨) شرح أشعار الهذليين ١٨١/١ .
- (٢٩) المصدر نفسه ٩٥١/٢ .
- (٣٠) المصدر نفسه ٩٦/١ ، الصوب : صوب المطر ، الرمي : سحب شديد القطر ، كُخَل : جمع أكحل وهو الأسود .
- (٣١) شرح أشعار الهذليين ٤٩١/٢ ، اللواصي : العسل ، واحده لاص .
- (٣٢) المصدر نفسه ٥٠٧/٢ - ٥٠٨ ، تراخ : تشتت .
- (٣٣) شرح أشعار الهذليين ١٠٨٣/٣ .
- (٣٤) المصدر نفسه ٩٦٠/٢ .
- (٣٥) المصدر نفسه ٨٤٦/٢ . هذا النص مختلف في نسبته ففي الأغاني ١٧١/٢٥ وكتاب المعاني الكبير ص ١٢٣٠ والتاج ، قرب ، والتمام في تفسير أشعار هذيل ١٢٦ ، ينسب إلى أم تأبط شراً ، وهذا النص فيه اضطراب في الوزن منه أشطر تخضع لبحر الرجز وأشطر لا يمكن اخضاعها لهذا البحر ، ولعل اضطراب الوزن راجع إلى تحريف في الرواية .
- (٣٦) شرح أشعار الهذليين ٥٨٠/٢ .
- الآين : الأعباء ، المسغبة : الجوع ، الأسلوب : أراد شجر (اللب) الذي يكون فيه الليف الأبيض .

المصادر والمراجع

أولاً : من مصادر الدراسة :

- ١ - تاج العروس من جواهر القاموس ، الزبيدي - محمد مرتضى الحسيني ، المطبعة الخيرية ، ط . الأولى ، مصر ١٣٠٦ هـ .
- ٢ - التمام في تفسير أشعار هذيل مما أغفله أبو سعيد السكري ، لابن جني - أبو الفتح عثمان ، حققه أحمد ناجي القيسي ، خديجه عبد الرزاق ، أحمد مطلوب ، ط . العاني ، بغداد ، ١٩٦٢ .
- ٣ - الحيوان : الجاحظ - أبو عثمان عمرو بن بحر (٢٥٥ هـ) ، تحقيق : عبد السلام هارون ، ط . مصر ، ١٩٣٨ م .
- ٤ - رسالة الصاهل والشاحج - المعري - أبو عمرو (٤٤٩ هـ) - تحقيق د . عائشة عبد الرحمن بنت الشاطي ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٥ م .
- ٥ - شرح أشعار الهذليين : السكري - أبو سعيد الحسن بن الحسين (٢٧٥ هـ) حققه : عبد الستار أحمد فراج ، راجعه ، محمود شاكر ، مطبعة المدني ، مصر ١٩٦٥ م .
- ٦ - صفة جزيرة العرب : الهمداني - أحمد محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (٣٦٠ هـ) تحقيق : محمد علي الأكوع ، ط . دار اليمامة ، الرياض ، ١٩٧٤ م .
- ٧ - كتاب المعاني الكبير في أبيات المعاني لابن قتيبة - أبو محمد عبد الله بن مسلم ، ط . دائرة المعارف العثمانية ، الهند ، ١٩٤٩ م .
- ٨ - كتاب الاغانى الاصبهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين ، تحقيق عبد الكريم إبراهيم ، محمود غنيم . ط . مؤسسة جماعة للطباعة ، بيروت .
- ٩ - المحبّر : ابن حبيب - محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي البغدادي (٢٤٥ هـ) ط . دائرة المعارف ، العثمانية ، الدكن ، ١٩٤٢ م .
- ١٠ - معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع : البكري - أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (٤٨٧ هـ) تحقيق : مصطفى السقا ، ط ، عالم الكتب ، بيروت . (د . ت) .

ثانياً : من مراجع الدراسة :

- ١ - أبو ذؤيب الهذلي ، حياته وشعره : نوره الشملان ، الناشر : عمادة شؤون المكتبات ، جامعة الرياض ، الرياض ، ١٩٨٠ م .
- ٢ - شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي : د . أحمد كمال زكي ، ط . دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٩ م .